عالم الفكر

مجلة دورية مُحكّمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

العدد 184
أكتوبر - ديسمبر
2021

- قراءة أبي تمام في ضوء نظرية التلقي
- التجريب الروائي العربي .. المصطلح والمفهوم
- من الشعري إلى الجمالي .. نحو بناء متعدد الوظائف لمكونات الخطاب في كتاب «خطاب الرواية المغاربية»
- سيميائيات الصورة البيداغوجية
- الهوية والهوية السردية .. المصطلح وحدود الاشتغال
- عُنف اللغة ومحنة المُتبقّي بين «التدوين» و«التأويل»
- الجذور المعرفية لجمالية التلقي لدى ياوس .. حفريات في التصور والمفهوم
- النخبة المثقفة العربية في ظل التحول إلى أنموذج معرفي جديد
- الكشاف السنوي لمجلة عالم الفكر 1970 - 2021

تصدر أربع مرات في السنة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

عالم الفكر

العدد 184 (أكتوبر - ديسمبر 2021)

المشرف العام
كامل سليمان العبدالجليل

مستشار التحرير
أ.د. سعاد عبدالوهاب العبدالرحمن

هيئة التحرير

أ. د. سالم عباس خدادة
أ.د. عيسى محمد الأنصاري
أ.د. عبدالله محمد الهاجري
د. عيسى حميد العنزي
د. رياض يوسف الفرس
د. زهاء فهد الصويلان
د. بيبي مسيطير العجمي
د.طارق أمين العوضي
د. نور محمد الحبشي
د. أحمد إياد السري
أ. عبدالعزيز سعود المرزوق

تم التنضيد والتصحيح اللغوي والتنفيذ بوحدة الإنتاج في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

دولة الكويت

aalam_elfikr@nccal.gov.kw

ISSN:1021- 6863

مجلة فكرية محكمة، تهتم بنشر الدراسات والبحوث المتسمة بالأمانة النظرية والإسهام النقدي في مجالات الفكر المختلفة.

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج العربي	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	6 د.ك
للمؤسسات	12 د.ك

دول الخليج

للأفراد	8 د.ك
للمؤسسات	16 د.ك

الدول العربية

للأفراد	10 دولارات أمريكية
للمؤسسات	20 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	20 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	40 دولارا أمريكيا

للاشتراك في مجلة عالم الفكر يمكنكم الدخول إلى موقعنا الإلكتروني، أو من خلال إرسال حوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت، وترسل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة النشر والتوزيع - مراقبة التوزيع

ص.ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي 13100

دولة الكويت

184
العدد

شارك في هذا العدد

- د. باشا بن محمد العيادي
- أ. خليفة غيلوفي
- د. المهدي بزازي
- د. محمد التهامي العماري
- أ. د. هادي شعلان البطحاوي
- د. إبراهيم جابر عليّ
- د. عادل بوحوت
- د. محمد عبدالمنعم شلبي

قواعد النشر في مجلة «عالم الفكر»

ترحب المجلة بمشاركة الكُتّاب المتخصصين، وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية:

1 - أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره، أو قُدّم للنشر في وسيلة نشر أخرى، ويجوز للباحث أن ينشر بحثه في مكان آخر بعد نشره في مجلة «عالم الفكر»، مع الإشارة إلى ذلك.

2 - ألا يكون مأخوذا من رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه.

3 - أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها في مجلة «عالم الفكر»، خصوصا فيما يتعلق بالتوثيق، بحيث توضع الهوامش في آخر البحث، ويشار إلى المصادر والمراجع في متن البحث بأرقام متسلسلة توضع بين قوسين، وتُبيَّن بالتفصيل في قائمة في آخر البحث، وفق تسلسلها، تليها قائمة بالمصادر والمراجع مرتبة هجائيا.

4 - أن تكون الصور والجداول - إن وجدت في البحث - واضحة وموثقة.

5 - أن يتراوح عدد كلمات البحث أو الدراسة ما بين 8 آلاف و16 ألف كلمة.

6 - تُقبَل المواد المُقدَّمة للنشر - مطبوعة ومصححة - على أقراص مدمجة أو بالبريد الإلكتروني، ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نُشِرت أو لم تُنشَر.

7 - تخضع المواد المُقدَّمة للتحكيم العلمي على نحو سري.

8 - البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات عليها تعاد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.

9 - تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات المنشورة، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة.

المواد المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ترسل البحوث والدراسات باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص . ب: 23996 - الصفاة - الرمز البريدي: 13100 - دولة الكويت
البريد الالكتروني: aalam_elfikr@nccal.gov.kw

المحتوى

المقدمة 4

قراءة أبي تمام في ضوء نظرية التلقي 7
د. باشا بن محمد العيادي

التجريب الروائي العربي .. المصطلح والمفهوم 47
أ. خليفة غيلوفي

من الشعري إلى الجمالي .. نحو بناء متعدد الوظائف لمكونات الخطاب في كتاب «خطاب الرواية المغاربية» 81
د. المهدي بزازي

سيميائيات الصورة البيداغوجية 127
د. محمد التهامي العماري

الهوية والهوية السردية .. المصطلح وحدود الاشتغال 165
أ. د. هادي شعلان البطحاوي

عُنف اللغة ومحنة المُتبقّي بين «التدوين» و«التأويل» 193
د. إبراهيم جابر علي

الجذور المعرفية لجمالية التلقي لدى ياوس .. حفريات في التصور والمفهوم 227
د. عادل بوحوت

النخبة المثقفة العربية في ظل التحول إلى أنموذج معرفي جديد 267
د. محمد عبدالمنعم شلبي

الكشاف السنوي لمجلة عالم الفكر 293

النخبة المثقفة العربية في ظل التحول إلى أنموذج معرفي جديد

د. محمد عبدالمنعم شلبي *

يفقد المثقف كثيرا من محتواه ودلالته الموصفة عندما يركن إلى التعاطي مع القضايا والمعضلات النظرية والواقعية في المجتمع عبر الطروحات النمطية والتنميطية التي يتمثلها، معتمدا على بنية ثقافية مهيمنة وكلية. حيث تغدو الفجوة المعرفية بين تلك الطروحات من ناحية، وحركية المشهد المتغاير آنيا من ناحية أخرى، واسعة وغير ملبية أو مشبعة؛ فالإجابات النظرية المقولبة ليست على مستوى التساؤلات والإشكاليات الواقعية؛ الراهنة والمستقبلة في آن.

وإذا ما كانت عدة المثقف تتمثل في بيانات ومعلومات، وخبرات واقع معيش، تنتظمها رؤية وإطار نظري ومنهجي، فإن الأخيرة هي المعنية هنا بالمراجعة أكثر من غيرها؛ حيث يبرز التساؤل: إلى أي مدى تتمتع رؤية المثقف وإطاره النظري - المنهجي بالقدرة والكفاءة «العلمية» اللازمة للتعاطي مع التطورات الاجتماعية الحادة والمتسارعة، وكذا بالفعالية المتطلبة للتعامل مع فيض البيانات والمعلومات، إضافة إلى خبرات الواقع الحالة والضاغطة بشكل يكاد يكون مستمرا؟ ومن قبل مراجعة الرؤى والأطر النظرية، ألا يجب أن تحتل المراجعة النقدية للحالة المعرفية محل الصدارة؛ بكل تمثلاتها ورواسبها اللاعلمية، التي تحتوي على شروط وحدود وسقوف إبداعات العقل وانطلاقاته ومغامراته المتطلبة؟

* أستاذ علم الاجتماع المساعد، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، جمهورية مصر العربية.

على جانب آخر، يصير كل اجتهاد معرفي محصور ضمن سياقات زمنية ماضية أو حتى راهنة، دون انشغال ببعد المستقبل؛ بمآلاته المتعددة، بين ممكن ومحتمل ومرغوب فيه، بمنزلة اجتهاد منقوص؛ فالمساهمة في إنتاج الفكر المستقبلي، خاصة في مراحل التحول، يعد ضروريا، يمايز بين مثقف وآخر من ناحية، وبين الإنسان وغيره من الكائنات من ناحية أخرى. المعضلة الأساس هنا، أن منظومة الفكر المستقبلي؛ نظريا ومنهجيا، هي جزء من كل المنظومة الفكرية - المعرفية العامة المهيمنة. حيث يصير الجهد هنا إشكاليا، متعدد الاتجاهات والأبعاد؛ ما بين سعي إلى انفكاك متطلب من أسر البرادايم المهيمن، والذي تغلب عليه النزعة الراهنية Presentism، إلى تأسيس للمغايرة، والإبداع عبر طرح البدائل.

البداية تأتي مع طرح التساؤلات اللازمة بشأن النخبة المثقفة ذاتها؛ معناها، وعلاقاتها المعرفية الملتبسة بالعلمي واللاعلمي، وما تفضي إليه هذه العلاقة من تكوين يتلقى وينتج المعارف ويستهلكها وينقلها ويكرسها اجتماعيا. كذلك هناك حاجة إلى دراسة علاقة المثقف - خاصة العربي - بالمستقبل وكيفيات التعاطي معه في ظل تحولات المفاهيم، تلك التي تتشكل منها الأطر النظرية، وبالتالي حالة التغذية الراجعة مع أنموذج إرشادي يتم الاشتباك النقدي الضروري معه في مرحلة تحول كوكبي تسابق فيه التطورات - في أحيان عديدة - عمليات التفكير والتأطير النظري، تلك الحالة التي سبق أن وصفها وليم أوجبورن W.Ogburn بالهوة الثقافية the Cultural Lag.

في ظل هذه الوضعية، ما الذي تلفتنا إليه منظورات ومنهجيات جديدة نسبيا في العلوم الاجتماعية، كالتعقد والشواش (الفوضى) Complexity & Chaos Approaches، في علاقتها بالمجتمع الشبكي، وتمثلات تطبيقاتها - منهجيا وتنظيميا - في المجتمعات التي ساهمت بالقدر الأعظم في إنتاجها، وتؤثر في بقية المجتمعات، وفق إيقاعات زمنية متفاوتة، كلُ وفق طبيعة بنيته الاجتماعية السائدة؛ باستعداداتها ومتطلباتها وتطلعاتها نحو المستقبل؟

أولا: النخبة المثقفة وإشكاليات التكوين المعرفي

أ - معنى النخبة المثقفة

النخبة هي جماعة محدودة العدد نسبيا، تحتل موقع الصدارة أو القمة في المجتمع، متمتعة بالقوة والنفوذ والقدرة على فرض هيمنتها على العامة، وفق شروط اجتماعية محددة، وخلال فترة تاريخية بعينها. وإذا كنا نركز - في هذا الصدد - على النخبة المثقفة تحديدا، فإنها تعرف بأنها تلك الفئة/ الفئات التي تحترف العمل الذهني المركب المنتج للمعرفة في مجالاتها المتعددة. هذه

النخبة التي تستهدف التوجيه والنقد وأداء الدور القيادي في تشكيل ثقافة المجتمع وتوجهاته العامة، وأنساقه القيمية، فضلا على رأيه العام.

وبمنظور أكثر اتساعا، فإن هذه النخبة المثقفة هي المعنية بتكوين وإنتاج رأس المال الثقافي والمعرفي في المجتمع الإنساني بشكل عام، وبالتالي فإن ممارستها أنشطتها الثقافية لا بد من أن تكون متحررة من القيود والحدود المادية وغير المادية التي قد تفرض على إبداعاتها من ناحية، وأن يتوافر لديها - من ناحية أخرى - الوعي والرغبة والإرادة والقدرة على الانطلاق والتحرر من الانتماءات والانحيازات الضيقة التي لا تليق بمثقف عام، يتسع نطاق وعيه وانتماءاته وقيمه الحاكمة ليستوعب الإنسانية بكاملها، من دون تمييز أو استبعاد.

وعلى الرغم من أن النخبة المثقفة هي في ارتباط غالب بالشرائح الطبقية الوسطى في المجتمع، فإن هذه النخبة تحديدا لا يصح حبسها طبقيا، باعتبار أن هذه الشرائح الوسطى هي موئلها الوحيد؛ فمكونات النخبة المثقفة تتجاوز نطاق التصنيف الطبقي الضيق، صحيح أن هناك مواقف طبقية متباينة للمثقفين، قد تتسق أو تتناقض مع مواقعهم الطبقية؛ غير أنهم يشكلون في واقع الأمر فئات اجتماعية، بأكثر من كونهم طبقة اجتماعية. هذه الفئات التي هي بالضرورة ذات رؤية عامة، ناقدة في غالب الأحيان؛ جذرية أو إصلاحية، بأكثر من كونها رجعية أو محافظة.

ب - الحالة المعرفية للنخبة المثقفة «بين العلمية واللاعلمية»

هذا، وتحدد طبيعة الحالة المعرفية للنخبة المثقفة، وما تنتجه من معارف، علمية كانت أو غير علمية، ليس فقط قدر وقيمة هذه النخبة المثقفة ذاتها، بل المجتمع الذي تنتمي إليه بشكل عام؛ فتقدير المجتمعات يتم بحجم ونوعية ما تنتجه نخبها العالمة المثقفة من معرفة علمية، في مقابل غيرها من المجتمعات التي قد تنتج أنماطا من المعارف اللاعلمية أحيانا، والملتبسة غير المصنفة في أحيان أخرى. وفي هذا الصدد، لنا أن نتوقف قليلا للحديث بشأن المعرفة وأنماطها، وموقف النخبة المثقفة منها.

تمثل المعرفة - في أحد تحديداتها - اعتقادا حقيقيا مبررا؛ فهي لدى صاحبها، أيا كان نمط تفكيره، علميا كان أو غير علمي، تمثل اعتقادا يثق بصوابيته، ومن ثم فهو مبرر لديه. وبهذا المعنى، فهي تتوافر على عمليات خلق الإدراكات والوعي والاتجاهات والصور والاعتقادات والقيم... إلخ، وذلك بهدف توصيف وفهم وتفسير وتأويل وتبرير الواقع وما وراءه.

وهي تنقسم إلى نمطين رئيسين: علمي ولاعلمي (ميثولوجي - ميتافيزيقي - ثيولوجي...)؛ حيث يؤسَّس الأول على قواعد المنهج العلمي في الوصول إلى نتائج وإجابات عن تساؤلات تصاغ بشكل

محدد ومحكم، أما الآخر (اللاعلمي) فيضم أنواعا مختلفة من المعارف التي لا تخلو من منهجية يجري تبنيها في الوصول إلى ما تعده حقائق، بيد أن تلك المنهجية/ المنهجيات تكاد تكون منبتة الصلة بالمنهجية العلمية الراسخة، والقائمة على قواعد المنطق والموضوعية والعقلانية والتجريبية.

في هذا السياق، من المهم الإشارة إلى أن لكل مجتمع إنساني نمطا معرفيا مهيمنا، وهو النمط الذي يرتبط بشكل واضح بمدى تقدم هذا المجتمع أو تخلفه الحضاري؛ حيث يسود نمط المعرفة العلمية على غيره من الأنماط المعرفية الأخرى في المجتمع المتقدم المؤسَّس على قيم ومعايير الحداثة، في حين تغدو الأنماط المعرفية اللاعلمية هي المهيمنة في مجتمع متخلف تسوده الأمية والجهل والتخلف.

هل يعني ذلك أن هيمنة النمط المعرفي العلمي ينسخ بقية الأنماط المعرفية الأخرى، بحيث لا يصبح لها وجود في المجتمع المتقدم؟ بالطبع لا، غير أن وجودها يصبح بمنزلة الثانوي والتندري والفولكلوري، في حين يصبح العكس هو الصحيح في مجتمع متخلف، حيث يكاد هذا المجتمع لا يخلو من وجود نمط معرفي علمي، بفعل وجود بعض المؤسسات التعليمية أو العلمية «الحديثة»، غير أنه وجود يتسم بالشحوب وعدم القدرة على الحسم والتشكيك في القائم من أنماط التفكير والاعتقاد؛ فالهيمنة الفعلية هنا هي لأنماط معرفية لاعلمية، تفرض رؤاها وتفسيراتها وتأويلاتها على المنتج المعرفي العلمي، بل وتتدخل في مراحل عدة من عملية إنتاج هذا المنتج، فتفرض حظرا على بعض الأفكار والمسلمات العلمية، وتراقب وتبتر وتبتسر البعض الآخر، بمعنى أن هذا المنتج «العلمي» يمر منذ بداياته، وحتى محصلته النهائية، بكثير من المصافي (Filter) اللاعلمية؛ الذاتية والموضوعية، حتى نجد أنفسنا في النهاية أمام منتج «شبه علمي»، قد يستوفي بعض متطلبات الشكل دون جوهر حقيقي أصيل.

ومن ثم، فالمحصلة هنا تتمثل في حالتين: أولاهما أن تصير هيمنة نمط المعرفة العلمية متنا في المجتمع المتقدم، وإن شابه وجود وتداخل بعض الأنماط المعرفية اللاعلمية في الهامش، والعكس صحيح في المجتمع المتخلف، حيث تحتل المعارف اللاعلمية المتن، في حين تتوارى المعرفة العلمية لتظل هامشية محدودة النطاق والتأثير والفاعلية.

هذا، وعلى الرغم من وجود حالة من اللاتأكد Uncertainty بشأن المنهج العلمي ذاته، خلال العقود القليلة الماضية بفعل تشكيك فلاسفة ما بعد الحداثة، وكذا بعض فلاسفة العلم، تظل المعرفة العلمية بمنزلة النمط المعرفي الأكثر أهمية، مقارنة بغيره من الأنماط المعرفية الأخرى؛ ليس فقط لما أنجزته من تقدم مطرد في كل المجالات التي تعتمد منهجا علميا، بل أيضا لما تتمتع به من قدرة على دراسة، وفهم، وتفسير بقية الأنماط المعرفية الأخرى، في حين لا تتمتع الأخيرة (اللاعلمية) بالقدرة نفسها على إنجاز المهمة ذاتها!

أما النقطة الأكثر خطورة هنا فتتمثل في قدرة المعرفة العلمية على إنتاج أنماط من المعارف اللاعلمية، اعتمادا على منهجيات وأساليب وتقنيات علمية! هذه الأنماط المعرفية اللاعلمية التي يكون في الإمكان توظيفها كسلاح أيديولوجي من أجل الهيمنة على المجتمع عبر تواطؤ بعض القوى المتنفذة ذات المصلحة. ومثالها الأبرز: تلك المصالح السياسية - الاقتصادية الاستراتيجية التي تؤسَّس على أساطير أو ميتافيزيقا أيديولوجية - دينية، والتي تشكل أكثر السياقات تعقيدا فيما يخص الحالة المعرفية في مجتمع من المجتمعات، حيث تغطي التبريرات الأيديولوجية المصالح السافرة من أجل تمويه وتلغيز الواقع الفعلي من ناحية، وخلع الشرعية على المصالح المراوغة من ناحية أخرى.

بناء عليه، نستطيع أن نحاجج بأن المعرفة العلمية التي تعد الذخيرة «المفترضة» للنخبة المثقفة، تمثل المكون الأكثر أهمية من بين كل مكونات القوة في المجتمع. إنها بمنزلة المشغل the Microprocessor لكل قوة مهيمنة بنجاح، حيث يغدو رأس المال دون المعرفة العلمية ثروة جاهلة، كما تتحول السلطة دون تلك المعرفة إلى قوة بطش عمياء.

ج- تمفصل العلمي واللاعلمي في التكوين المعرفي للنخبة المثقفة العربية

يفترض التكوين المعرفي للنخبة العلمية مبدئيا الانحياز بوضوح إلى النمط العلمي في التفكير الذي ينعكس في توجهاتها وأفعالها وسلوكياتها، حيث يكون متوقعا سيادة القيم المنطقية والعقلانية والسببية، جنبا إلى جنب التشكيك والتفنيد؛ مما يجعلها -أعني النخبة العلمية- على التضاد وكل أنماط التعاطي اللاعلمي مع الواقع، والتي تتجلى في الخرافات والغيبيات والأساطير وكل ما يتعلق بعوالم لا يمكن إثباتها واقعيا عبر العقل المحض. وهنا يجب امتلاك القدرة على التمييز بين المنهجية العلمية، بكل مسلماتها ومقولاتها وقيمها والفلسفة الكامنة وراءها من ناحية، وممارسات الشخص - ضمن هذه الفئة - في حياته الواقعية، والمؤسَّسة على رؤيته لذاته والآخر. بيد أن المعضلة الكبرى تتبدى حينما تخبر التكوينة المعرفية لتلك النخبة المثقفة حالة من تعاصر وتعايش وتمفصل أنماط من المعارف العلمية واللاعلمية في الآن ذاته، خصوصا أن ميراثا ثقيلا من العادات والتقاليد والمعتقدات، فضلا على البيئة التربوية الأسرية البطريركية، والنظم التعليمية الدوجماتية الشكلانية، وكذا مؤسسات العمل الروتينية البيروقراطية، تشكل جميعها بنيات ضاغطة تعمل على إعادة إنتاج الإنسان العادي «النمطي»! حيث لا نجد فارقا كبيرا وحاسما بين أن يكون هذا الإنسان قد حصّلَ قدرا متواضعا من التعليم، أو نال أعلى الدرجات العلمية.

المعضلة في عمقها تتبدى حينما يسود الاعتقاد لدى النخبة المثقفة بأن المعرفة العلمية لا تعد كافية بذاتها للتعامل مع الواقع، حيث يكاد يغلب الاعتقاد بأن هناك أنماطا معرفية أخرى «لا علمية» يحتاج إليها الإنسان - أيا كان - في تعامله مع واقعه.

ومن ثم، يكون من المتوقع أن يفرز هذا السياق المجتمعي أنماطا من المثقفين (الأكاديميين تحديدا) الذين تقف عقلياتهم - سواء بوعي وقصدية أم من دونهما - موقف الرقيب الذاتي ضد أي أفكار مغايرة، تأتي من خارج السياق المجتمعي المعلوم، حيث النسق المتوازن الذي لا يحتمل صراعا. إنهم يتلافون الاشتباك العقلي الحر والجسور مع أفكار ومقولات نظرية تتسم بجرأة الطرح، تلك التي تعتمد على منهجية علمية في التعاطي معها، فهذه المنهجية قد لا تتوافر لديهم، وإذ ما توافرت قد لا يتمتعون بجرأة استخدامها على استقامتها. ولكنهم، وعلى الجانب الآخر، على استعداد وترحيب بأن يقبلوا، من دون نقد أو تمحيص لكثير من المرويات والمحكيات والحكم النابعة من تراث خرافي أوثيولوجي، لا يتقبله عقل أو منطق!

● وفي السياق ذاته، يبرز نمط المثقف «الانتقائي» الذي يتبنى بعض المسلمات والمقولات النظرية، إلا أنه يقرر التخلي عن بعض مكونات هذه النظرية، وقد تكون أساسية، ليس لكونها تنطوي على تناقض داخلي ما، أو أن الواقع وتحولاته قد فرضت على هذا المثقف ضرورة مراجعتها ونقدها، إنه يقوم بذلك نظرا إلى تعارضها مع اقتناعاته الذاتية، تلك النابعة من ترسانة قيمية تقليدية محافظة - رجعية لا علمية في الأساس. وتكون المحصلة متمثلة في منتجات معرفية شائهة، هجين بين العلمي واللاعلمي!

● ثم نأتي إلى نمط آخر من المثقفين في هذا المجال، هو الأكاديمي «الحرفي» الذي يتقن تطبيق المنهج العلمي؛ بأساليبه وأدواته المختلفة، وقد يكون متبنيا لإطار نظري معين، لكنه في واقع الأمر مجرد «حرفي» ليست لديه رؤية، أو حس ناقد، كما أنه - وهو الأهم - قد يتعاطى مع الواقع من حوله برؤية وقيم مغايرة تماما، مستنسخا أشد أنماط المعارف تقليدية وتخلفا، فما يتقنه من حرفة البحث هو فقط لكسب العيش والمكانة الاجتماعية «الأكاديمية»، أما الحياة الواقعية فلها ما لها من طرائق مغايرة تمام المغايرة. ومن ثم، نجد مؤسساتنا الأكاديمية من جامعات ومراكز بحثية، خصوصا في الأقسام المعنية بالعلوم الاجتماعية والإنسانيات التي من المفترض أن تكون كوادرها بمنزلة الطليعة المستنيرة التي تتعاطى مع العلم وقيمه ومسلماته بعقل ناقد مستنير، نجدها وقد هيمنت عليها نخب تقليدية، قد تشكك في العقل والعقلانية، وحرية الإبداع، وتنظر بريبة وتوجس وخوف إلى كل من يقارب التابوهات المقدسة، حتى تحولت أقسام واسعة من أعضاء هذه المؤسسات إلى مجرد موظفين روتينيين بيروقراطيين، مبتعدين عن جوهر دورهم المفترض بوصفهم مثقفين.

ومن ثم، فإننا نشهد حالة من حالات تكلس النخبة المثقفة وضعف دورانها وتجددها في مجتمعنا، إلا من تمكن من الإفلات من الدائرة الجهنمية للمؤسسة، وسعى إلى إبداع مغاير خارج الإطار، بعيدا عن قولبة هذه المؤسسة وتحكماتها، والتي تفضي آليات عملها إلى إعادة إنتاج المثقف التقليدي، بكل ما يعنيه مفهوم التقليدية من سلبيات لا حصر لها. وإذ ما كانت هذه هي الحال لدى قطاع واسع من المثقفين الأكاديميين، فكيف لهذه النخبة أن تشتبك مع المستقبل وقضاياه؟ ما نوعية العقلية المنهجية المؤهلة لهذا النوع من الإنتاج المعرفي؟ والأهم: ما كيفيات التأسيس لانطلاقة تجعل من الاستثنائي قاعدة، بمعنى ألا يكون منتجو الثقافة «الحقيقيون» أفرادا يغردون خارج السرب، بل جماعات مثقفة تقود نقلة هائلة لتحويل المجتمع وإحداث نقلة نوعية تتوخى الإبداع الذي يتعاطى مع العقل، ذلك الذي يحوي كل التناقضات الممكنة، والمتحرر من كل ما يعوقه عن تحقيق جوهره الانساني؟[1].

ثانيا: المثقف وإنتاج الفكر المستقبلي

يعد إنتاج الفكر المستقبلي من أعقد صنوف التفكير وأكثرها تركيبا، إنه ليس مجرد الاستبصارات الناتجة عن ذهنية حدسية، بل الاستشرافات التي تضع في اعتبارها شروط الماضي والحاضر متطلعة صوب مستقبلات تنبني على ظروف موضوعية من ناحية، وحضور للذاتي، وغير المتوقع، والاستثنائي من ناحية أخرى. حيث لا ينتفي المعياري «الاستهدافي» Normative من نشاط يعلن الاستطلاع، تماما كما لا يغيب الاستطلاع Exploratory عن استهداف مستقبل محدد بعينه.

ولعل من الملاحظ ازدياد درجة الاهتمام بالمستقبل ومآلاته في فترات التحول الكوكبي بأكثر من فترات الاستقرار النسبي. وعلى الرغم من أن فترات التحول هذه تعد - في نظر البعض - فترات يصعب إلى حد الاستحالة التنبؤ بمآلاتها، وذلك لما يصاحبها من انهيار البرادايم the Paradigm الذي كان سائدا خلال فترة الاستقرار النسبي، ومن ثم عدم القدرة على الرصد والاستشراف وتحليل البنى والعمليات وفق أطر وأنساق نظرية تنتظمها وتفسرها، فإن هذه الفترات ذاتها تعد أكثر الفترات تطلبا لممارسة الاستشراف المستقبلي، حيث إن للجهود التي تبذل في فترات التحول هذه مشروعية التأسيس لاتجاهات وقيم ومعايير بعينها شرط الوعي بالقدرات المتاحة والممكنة لمسارات واتجاهات عميقة تتشكل ببطء وعلى نطاق واسع، إلى جانب قدرات كامنة وتراكمات على صعد مختلفة قد يؤدي تضافرها - عبر الزمن - إلى تحولات نوعية، فضلا على نوعيات البشر، وإمكاناتهم، واستعداداتهم، وتطلعاتهم، ورؤيتهم لذواتهم، وصورة الآخر لديهم، ومدى وعيهم بدورهم ومكانتهم داخل أنساق تتراوح بين الضيق والاتساع على نطاق عالمي - كوني.

وعليه فقد يكون من غير الملائم الاكتفاء بتقرير سقوط «الأنموذج» الذي كان سائدا، بل بمحاولة طرح الرؤى والاجتهادات والتصورات المستقبلية (الاستهدافية تحديدا) خلال هذه المرحلة التي نعايشها؛ فالمستقبل لن يتشكل من تلقاء نفسه، بل من خلال جهود بشر يستهدفونه من الآن على هيئة أو أخرى، سواء بتقرير خط موجود وتدعيمه، أو بمناوأة آخر لاستبعاده، أو تعديل مساره، إلى جانب طرح البدائل الممكنة، ومن هنا تكتسب الدراسات المستقبلية أهميتها خلال تلك الفترات بالذات، وذلك لما تتمتع به من شمول مجالها وبينية منهجيتها، ومن ثم تجاوزها لثنائية العلم الطبيعي والاجتماعي.

البداية تتمثل في الوعي بمدى التحولات الجذرية التي طرأت على «الأنساق المفاهيمية» إلى الحد الذي يضفي على استخدام مفاهيم متداولة دلالات مختلفة تماما عن استخداماتها التقليدية، مما يترتب عليه مراجعة مجمل تصوراتنا ورؤانا ونظرياتنا في ظل تحولات الواقع الجديد الذي يتخذ طريقه نحو خلق عالم مستقبلي يختلف كثيرا عن ذلك الذي عايشه واعتاد عليه معظم الناس في جميع أنحاء العالم، وإن بنسب تتفاوت بينهم وفقا لدرجات التقدم والتخلف التنموي.

إن إدراك هذه التحولات يعد الخطوة الأساس نحو تفكير مستقبلي تطرح خلاله تصورات وبدائل ونماذج تختلف وتتمايز عن محاولاتنا السابقة.

وفي ضوء ذلك، وفي اتصال قوي بتحولات المفاهيم، يطرح الباحث تصوره لتحول طرأ على مفاهيم ثلاثة كبرى قد يكون في طرحها للمناقشة إيضاح لحديث عام يتم في هذا الصدد. هذه المفاهيم المتحولة هي المتعلقة بالنسبية، والحدود الفاصلة إلى جانب العالم، بين الوجود المادي والمحاكي. وهي المفاهيم التي تعد في اتصال وتعاضد حيوي؛ فتفهم كل واحد منها يفضي إلى تفهم الآخر واستيعابه، بل وغيره من المفاهيم ذات الصلة.

أ - من المعلوم أن العالم قد مر بمرحلة يطلق عليها مرحلة «الإطلاقية النيوتنية»، نسبة إلى نظرية الجاذبية لإسحاق نيوتن، وهي بمنزلة نسق كامل ومتكامل يحلل العالم ويفسره من كل جوانبه، هذا النسق/ البارادايم النيوتني الإطلاقي الكوني يتسم بالشمول وبإطلاقية الحكم بدرجة كبيرة، وهو ما ميز بدايات العصر الصناعي في أوروبا الذي قام على أساس ميكانيكي، وقد ظل هذا النسق الإطلاقي سائدا حتى جاء آينشتاين بنسبيته الشهيرة التي حولت المجرى كاملا فجعلته قائما على نسق متكامل «آخر» لرؤية العالم وتفسيره؛ مغايرا لسابقه ومفندا له؛ فأصبح لنسبية النظر والتفسير دورها المتجلي بوضوح في كل ميادين العلم الحديث، بل والحياة بأكملها، فأصبحت العلمية مقترنة بالنسبية التي جعلت للمرونة - كبديل عن الدوجماتية والإطلاقية - مكانتها ودورها في كل الطروح، ليصبح كل من يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة مجرد واهم ذي فكر غير سوي.

في الوقت الراهن يمر مفهوم النسبية بتحول ينزع نحو الإفراط ليصبح لدينا ما يمكن أن نطلق عليه: النسبية المفرطة، يحدث ذلك نتيجة الفيض المعلوماتي، حيث تصبح وفرة المعلومات عند درجة بعينها من التدفق عاملا من عوامل الفوضى، والحيرة، واللاتحديد، ويصير عنده القول الفصل بصحة أو خطأ فكرة أو قيمة أو سلوك أو قرار أو ظاهرة... إلخ أمرا عسيرا للغاية. لقد تجاوز العالم الإطلاقية التي تقول إما هذا وإما ذاك في حكم كلي شامل، كذلك تجاوز مرحلة النسبية، حيث تتعدد الآزاء والرؤى «المنضبطة» نسبيا، ليلج في الراهن والمستقبل بدرجات وكيفيات أكبر، مرحلة الإفراط في النسبية، حيث لا تتعدد فقط المصادر، والأحكام، والزوايا، والرؤى، والثقافات... إلخ، بل تتداخل وتتناقض وتتشظى إلى حد مذهل على نطاق كوني في عصر المعلومات؛ إنه الانتقال من أنماط التفكير التقليدية الخطية Linear Types، إلى تلك القائمة على التعقد والشواش Complexity and Chaos Approaches.

إن ظاهرة كهذه تعد من أكثر المفارقات التي تشهدها البشرية؛ فالإنسان - بشكل عام - يجد صعوبة بالغة عند اتخاذه قرارا محددا بشأن مسألة لا تتوافر لديه معرفة جيدة بجوانبها المختلفة، أو لنقل يجهلها، كما أنه يكون في الموقف الصعب نفسه، إذا توافرت لديه معلومات بالغة التنوع والغزارة، والتناقض - في أحيان عديدة - حول المسألة نفسها، وهنا تكمن المفارقة، حيث يفضي شح المعلومات وفيضها إلى النتيجة نفسها تقريبا، وهو أحد تحديات المستقبل. غير أن ما زاد من صعوبة التعاطي مع مسألة المستقبل أن الانتقال لم يحدث فقط على نطاقي شح المعلومات وفيضها، بل في تحول طرأ على منهجية التفكير الحاكمة، من خطية مريحة نسبيا، تفضي مقدماتها إلى نتائج متوقعة، ومدخلاتها إلى مخرجات معلومة... إلخ، إلى أخرى تركز على استكشاف انتظام ما يسم الفوضى والشواش، وذلك عبر حالة من التعقد الشامل!

ب - كذلك ينتقل العالم إلى مرحلة يفقد خلالها مفهوم «الحدود الفاصلة» نفس دلالاته التقليدية السابقة، إن ذلك يمكن رصده على عدة مستويات؛ نظرية وواقعية، فالحدود بين النظريات المختلفة والمجالات العلمية المتعددة تتلاشى بدرجات ملحوظة. وفي هذا الإطار يمكننا ملاحظة أن العالم قد انتقل عبر تاريخه من عصر العالم الشامل الموسوعي الذي كان يجمع بين الطب، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا... إلى عصر العالم المتخصص في فرع دقيق بعينه، وصولا في الراهن ومستقبلا بدرجة أكبر إلى عصر العالم متعدد الانتماءات العلمية بشكل عام، والذي يقع مجاله على حدود العديد من العلوم والمداخل، وهو في ذلك يتجاوز حدود التخصص الضيق المحدود ليلج نطاقات أكثر اتساعا وخصوبة، يتبدى ذلك جيدا في البزوغ القوي لما يعرف بالمقاربات البينية Interdisciplinary والعابرة للتخصصات Cross disciplinary، وهي العملية التي يتولد عنها

كثير من النتائج والمترتبات، سواء على صعيد العلم الطبيعي أو الاجتماعي، والتي تصعب الإحاطة التامة بشمول نتائجها على المستويات كافة، باختصار، إننا في مرحلة انتهاء عصر النموذج الصرف «المحض» The end of pure model era، لنلج عصر النماذج المتمازجة The mixed models.

جـ - إلى جانب ما سبق، فإن العالم في كليته يخبر تحولا نحو مرحلة «العالم المحاكى» The virtual world، والتي يتجاوز خلالها مرحلة وجوده المادي التقليدي الملموس المحدود ليلج إلى مرحلة يترافق فيها مع هذا الوجود التقليدي نوع آخر، غير مسبوق كيفيا من الوجود الموازي «المحاكى» الذي تخلقه ثورة الاتصالات والمعلومات، والذكاء الاصطناعي، إنترنت الأشياء، والحوسبة السحابية، والواقع المعزز... إلخ، حيث يتجاوز حدود الوجود المادي السابق ويتسم بلا محدوديته وبكونه اللامادي الذي يتيح، وبشكل مكثف وتراكمي خبرات واسعة بمجالات متعددة، وبقيم ومعايير ورؤى وأساليب حياة مغايرة لما كان سائدا في الماضي. ومن ثم تخبر البشرية حالة من التناص بين سياقات متعددة Intercontextuality، حيث التناص بين الواقعي Realistic والمحاكى Virtual، بين البشري Human والتقني Technology، إضافة إلى تباينات وتقاطعات الزمكان عبر الكوكب. هذا التحول الذي يتيح إمكان تخلق أنماط من «الوعي» تفترق نوعيا عن تلك التي كانت سائدة تقليديا في السابق، والمحددة بحدود الوجود المادي، متحررة عن نطاقاته الضيقة، خاصة تلك المرتبطة بالزمان والمكان[2].

ثالثا: التعقد والشواش في دراسة المستقبل .. نحو أنموذج إرشادي جديد

يقتضي حسم الصراع مع براديم مهيمن والتحول صوب براديم جديد بازغ، ليس فقط تحليل ما أصاب مفاهيم مركزية من تحول، بل الاجتهاد - قدر المستطاع - للوقوف على أمر المنهجية التي قد ينطوي عليها هذا البراديم الجديد. هذا الاجتهاد العلمي، بتباين درجات صوابيته، يمثل ضربا من الاستشراف المستقبلي المتطلب بذله، على عدة مستويات وصعد، وباختلاف مجالات البحث والدرس.

وعلى الرغم من تعدد منطلقات النظر بصدد المنهجية، وما قد يركز عليه البعض ليمثل مناط اهتمامهم بشأنها، في مقابل البعض الآخر من الباحثين الذين قد يركزون على منطلق مغاير، فإن مرحلة التحول ذاتها، بما تتسم به من تشظي، ولاتأكد، وفي الوقت نفسه تشبيك، وتفاعل، وانبثاقات غير متوقعة... إلخ، قد أفضت إلى ضرورة الانتباه لمقاربات نظرية، مثل التعقد والشواش، علها تدلنا على مسار منهجي فاعل ضمن منظومة منهجية يؤسَّس عليها أنموذج إرشاردي جديد.

أ- السيبرنطيقا كأساس للتعقد والشواش

تمثلت البدايات الأكثر جدية وأهمية لمقاربتي التعقد والشواش في المساهمة النظرية/التطبيقية لعالم الرياضيات الأمريكي نوربيرت فينير (1894 - 1964) Norbert Wiener، تلك المساهمة المتعلقة بابتداع مجال علمي كامل؛ هو مجال السيبرنطيقا Cybernetics، هذا المجال الذي تعاطى إيجابا مع مشكلة حالّة وملحة واقعيا؛ فكانت المحصلة والمردود تحول فعلي لبرادايم ظل مهيمنا منذ إسحاق نيوتن! أي التحول من الخطية، والإطلاقية، والتقليدية، إلى اللاخطية، والنسبية، والدينامية، والتفاعلية، والمابعد حداثية.

لقد كان ظهور ما أُطلق عليه السيبرنطيقا مرتبطا بالحرب العالمية الثانية، ولأسباب عسكرية، تمثلت في كون أن الجيش الأمريكي وجد صعوبات في مواجهة وإسقاط الطائرات الألمانية، بسبب قدراتها الهائلة على المراوغة. ومن ثم كُلِّف فريق من العلماء المنتمين إلى تخصصات متعددة لمواجهة هذه المشكلة، وكان من بينهم نوربيرت فينير الذي تمكن من ابتكار جهاز مكون من مدفعية أرضية وآلة حاسبة، تمنح الجنود معلومات مستمرة حول موقع الطائرة، وإحداثياتها، ومن ثم تحديد موقعها اللاحق، مما عمل على حلحلة مشكلة التحكم في مسار المقذوفات، حيث كان لا بد من حل المشكلة رياضيا؛ لأن الأمر هنا يتعلق بمسالة غاية في التعقيد، وهي مسألة استنباط مسارات قذيفة عشوائية، أي مشكلة توقع سلوك عشوائي.

ولتجاوز هذه المشكلة، كان لا بد من تجاوز المفهوم الكلاسيكي للسببية، أي السببية الخطية، حيث أسست السيبرنطيقا لعلاقة جديدة، تربط الأفعال والأهداف بعلاقة تفاعلية دينامية تقوم على عمليات التغذية المرتدة. وهو ما مثل الأساس المنهجي لنظرية التعقد، وأصبح من أهم ملامحها المميزة قابليتها للتطبيق في إطار مجالات معرفية متعددة، والتعامل مع الصلات والتداخلات فيما بينها، والنظرة الكلية (تكامل البسيط في إطار المركب)، وأن لها قيمة تطبيقية عالية، خاصة فيما يتعلق بحل المشكلات واتخاذ القرار... إلخ[3].

ب - التعقد والشواش .. المدخلات والمخرجات!

وإذا ما تناولنا مقاربتي التعقد والشواش بلغة المنظومة، فإن المدخلات الأبرز لهاتين المقاربتين تتمثل في الأسباب الصغيرة أو الصغرى، في حين نجد المخرجات متمثلة في الوصول إلى حالة التحول الطوري.

1 - المدخلات .. الأسباب الصغيرة قد تفضي إلى نتائج كبيرة غير متوقعة!

وقد يكون من أهم ما يعكس أهمية نظريات التعقد والشواش، سواء في تفهمنا لما سبق، أو بدرجة أكبر لدى سعينا إلى استشراف ما هو آت، ما أكدته تلك النظريات بشأن ضرورة الانتباه وإعادة الاعتبار للأسباب الصغيرة؛ تلك التي قد تكون وراء حدوث نتائج كبيرة، وكذا غير متوقعة لدى معظم الناس.

الأمر المدهش - بالفعل - أن هذا المبدأ ليس حديثا، بل يرجع إلى نهايات القرن السابع عشر، حينما توصل هنري بوانكاريه Henri Poincare إلى نتائج قلبت النظرية السائدة عن الكون الحتمي الخالص، التي سُلم بها منذ أن وضع إسحاق نيوتن الرياضيات الخطية Linear Mathematics، حيث بيّن بوانكاريه، في بحث في العام 1890، أن قوانين نيوتن لا تقدم أي حل لـ «مشكلة الأجسام الثلاثة»، أي كيفية التنبؤ بحركات الشمس والأرض والقمر، ووجد أن تباينات طفيفة في الشروط الابتدائية قد تحدث تباينات هائلة في الظواهر النهائية وتتحدى الحالة التنبؤية. وهكذا صرفت اكتشافات بوانكاريه النظر عن النموذج الخطي النيوتني الذي كان يهمل التغيرات الطفيفة التي تبرز بروزا غير متوقع[4].

وقد وصف لورنتس Edward Lorenz المنظومات التي تظهر اعتمادا حساسا على الشروط الابتدائية بأنها تحمل «أثر الفراشة» The butterfly effect، وهو المصطلح الفريد الذي يعود إلى العبارة الشائعة: عندما ترفرف فراشة بجناحيها في هونج كونج يمكنها أن تحدث سلسلة من الأعاصير في تكساس!

إن المشكلة تكمن هنا في أن النظم اللاخطية يصعب التنبؤ بسلوكها، وأي خطأ بسيط في تقدير حالتها الابتدائية يؤدي إلى خطأ كبير في تقدير حالتها عند الحساب النهائي. إن الكل في المنظومة اللاخطية أكثر بكثير من مجموع أجزائه، ولا يمكن اختزاله أو تحليله في حدود وحدات فرعية بسيطة تعمل معا، فغالبا ما تكون الخصائص المتحصلة غير متوقعة ومعقدة وتصعب معالجتها رياضيا. وبالتالي فالتعقيد هنا يعبر عن ارتباط أجزاء عديدة ارتباطا بنيويا ضمن علاقات خاصة لتحقيق مهمات معينة[5].

«وهكذا بينت أبحاث بوانكاريه أن النموذج الخطي النيوتني، لا يمكنه التعامل مع ظواهر تحدث فيها تغيرات بسيطة فتؤدي في المستقبل إلى فروق كبيرة ونتائج غير متوقعة عند الحساب النهائي، ولا يمكن التنبؤ بها... ومع ذلك، فإن تلك الأفكار التي أعلن عنها بوانكاريه لم تتبلور إلا مع اختراع الحواسيب واستخدامها في نمذجة الظواهر؛ مما مكن العلماء من التعامل مع المعلومات على مستوى لم يكن ممكنا من قبل. غير أن، وبشكل عام، اكتشاف الظواهر الشواشية أظهر أن الطبيعة شديدة التعقيد، لأنها - في حالات معينة - لا تتبع أي قانون من قوانين الطبيعة»[6].

وفي هذا الصدد، يعرف إدجار موران Edgar Morin التعقيد بأنه «نسيج من المكونات المتنافرة المجمعة بشكل يتعذر معه الفصل بينها، إنه يطرح مفارقة الواحد والمتعدد. إن التعقيد هو نسيج من الأحداث والأفعال والتفاعلات والارتدادات والتحديدات والمصادفات التي تشكل عالمنا الظاهري». ويضيف موضحا أمرا غاية في الأهمية في هذا الشأن: «إن الاعتراف بالتعقيد لا يعني التوضيح، فالقول بالتعقيد اعتراف بالعجز، إنه يشرح، يعبر عن الحيرة أمام ما هو متنوع ومتعدد وغير واضح تماما»[7].

بتعبير آخر، إن التعقد والشواش يوصفان حالة دون تقديم ما يفسرها بشكل كاف ومقنع؛ إنهما، ونظرا إلى طبيعة منطلقاتهما النظرية التي تسعى إلى الانخلاع ومغادرة كل ما يرتبط بتراث الحتمية والسببية والخطية... لا يمكن لهما الوقوع في المحظور! بمعنى طرح تصور يتسم بالخصائص التفسيرية نفسها التي سبق أن انقلبا عليها. ومن ثم تأتي المساهمات - في هذا الصدد - كالروايات مفتوحة النهايات؛ فوضع النهاية، ولو كانت منطقية، ينسف محاولة الخروج والانعتاق من أسر النسق الحداثي.

2 - المخرجات .. مآلات حالة الشواش

مع مرور الأنساق المختلفة والمتعددة والمتنوعة، والتي قد تكون جسدا أصيب بمرض عضال (مثل السرطان)، أو مجتمعا في مرحلة حراك ثوري، أو طبقات اجتماعية في حالة صراع متأجج... إلخ، فإن كل هذه الأنساق تصل - في الغالب - إلى مرحلة أطلق عليها كل من نورمان باكارد Norman Packard وكريس لانجتون Chris Langton مسمى: حافة الشواش edge of chaos، وهي المرحلة الأكثر تعقيدا في حالة الشواش؛ فهي المرحلة التي تشهد عملية التحول الطوري Phase transition.

وفي هذا الصدد، بدأ فون نيومن Von Neumann دراساته على التحول الطوري للمنظومة عند حافة الشواش في بحوثه على الآلات ذاتية التحكم. وقد كشف بحثه أن «حافة الشواش» هي الموضع الذي تتعاظم فيه العمليات المترافقة ضمن المنظومة، حيث يكون أداء المنظومة خلاله عظيما، وتجري في تلك الأثناء أشد الحسابات تعقيدا، حيث تدخل المنظومة في مرحلة التشعب إلى منطقة/ مجال افتراضي، تصاغ خلاله الخيارات Choices و/ أو الممكنات Possibilities؛ فقد تتجه المنظومة نحو الجاذب Attractor الأكثر قوة وحضورا واستعدادا، والذي يقوم بمهمة قيادة المسارات، أو أن تقفز من جاذب إلى آخر. في هذه المرحلة تصنع الخيارات المستقبلية للمنظومة؛ وتسمى بمرحلة الشواش العميق Deep chaos؛ فإما أن تعيد المنظومة تنظيم ذاتها في مستوى أعلى من التعقيد، وإما تتجه نحو التلاشي والاضمحلال[8].

رابعا: التعقد الاجتماعي في المنظور السوسيولوجي

● إذا ما كان هناك اتجاهان رئيسان في النظرية السوسيولوجية؛ أحدهما وظيفي محافظ يقوم على مفهوم النسق والتوازن والتكيف، وآخر راديكالي صراعي ينتصر لمقولات الجدل، فإن مقاربات التعقد والشواش تعد بمنزلة التمثّل النظري لمقولات الصراع والجدل داخل أنساق ذات هويات متباينة من حيث الشكل والوظائف والأدوار... إلخ. ومن ثم فإن هذه المقاربات النظرية (التعقد والشواش) تقوم برصد وتحليل حالة الصراع الناشبة بين الموضوع ونقيضه في أعلى مراحلها، والتي قد تفضي «تحت شروط معينة» إلى مركب للموضوع، قد يختلف نوعيا عن سابقيه في حالات، أو أن يظل من دون تجاوز حاملا شروط التعايش بين المتناقضات في حالات أخرى.

هذه الحالة الأخيرة التي يطلق عليها الماركسيون البنيويون حالة التمفصل Articulation، والتي تحتمل تعايش Co-existence وتفاعل أنماط متعددة للإنتاج، وقد تكون متناقضة، من دون أن تتجاوزها صوب نفي واستبعاد صريح وواضح لنقيض الموضوع، ومن ثم التسيد «النسبي» لنمط وحيد غالب ومهيمن.

لقد أطلق إدجار موران على هذه الحالة مبدأ الحوارية، وهو يعرفه بقوله:

«هو وحدة معقدة بين منطقين، وكيانين متنافسين ومتعارضين، يتغذى أحدهما على الآخر، ويكمل كل منهما الآخر، لكنهما يتعارضان ويتحاربان أيضا. وينبغي تمييز هذه الحوارية عن الديالكتيكية الهيجلية. فلدى هيجل، تجد المتناقضات حلولا لها، وتتجاوز بعضها بعضا، ويلغي بعضها بعضا داخل وحدة عليا. أما في الحوارية فتكون المتناقضات دائمة، وتشكل كيانات أو ظواهر معقدة»[9].

وفي رأينا، أن كلتا الحالتين مقبولتان وممكنتان، مادامت شروط البقاء والاستمرارية ظلت قائمة؛ فالحالة الجدلية تتحقق إذا ما نجح النمط الأقوى في فرض سيطرته وهيمنته من ناحية، وفشل النمط/ الأنماط المتعارضة معه في الاستمرار الفعال في فرض الحالة الصراعية واستدامتها من ناحية أخرى. ومن ثم، تحدث حالة التجاوز نحو مركب للموضوع يحايث المنتصر، هذا الذي لم يخرج من معركته كنمط محض، بل مخصبا بما يمكن أن نسميه الأجسام المضادة - إن صح التعبير - التي اكتسبها عبر المرور بخبرات الصراع مع الآخر المغاير، والمتصارع، والمضاد، في عملية ممتدة من التغذية الراجعة التاريخية.

أما في حال توازي القوى المتصارعة، على الرغم من عدم تساويها كمًّا، وتوافر شروط بقاء تلك القوى عبر مصادر ذاتية وموضوعية، داخلية وخارجية؛ فإن المبدأ الحواري «التنافسي أو التصارعي» يصبح حاكما، وتستمر حالة التعايش بين القوى المتنافرة، بلا نصر واضح أو هزيمة

حاسمة لأحدهما في مقابل الآخر! بل قد تستمر هذه الحالة من الصراع/ التنافس غير المحسوم، نظرا إلى مصالح تتحقق لدى فئة/ فئات نافذة لدى كلا الفريقين، في حين قد لا يستفيد، بل قد يخسر من وراء هذه الحالة أغلبية الفئات لدى كلا الفريقين المتصارعين!

بيد أن ما يمايز بين هذين الاتجاهين الرئيسيين الكليين من ناحية، وكل الإسهامات التي جاءت تالية، ناقدة ومغايرة، ذات طابع ما بعد حداثي، ومن أهمها إسهامات مقاربتي الشواش والتعقيد، كونهما تركزان على التفاصيل، بل وتفاصيل التفاصيل، فلم يعد المنظور الجشطالتي/ الكلياني وحده مشبعا، بل تم وسمه بالتنميطي، في حين أن الأنساق كافة، بشرية وطبيعية، تنطوي على ما هو أكثر تعقيدا، وحساسية للتفاصيل ذات الطابع الدينامي، تلك التي كانت تُهمل في السابق في النظر والتحليل، وهو ما أفضى - في أحيان عديدة - إلى حالة من حالات عدم الفهم لنتائج ومحصلات كان الظن والتوقع أنها ستأتي على هيئة مغايرة تماما لما هي عليه! بيد أنه من المهم للغاية - في هذا الصدد - ضرورة الانتباه إلى أن التغيرات «الملفتة» من هذه النوعية، والتي تأتي مترتبة على حدث أو عامل ذي طابع تفصيلي «فرعي»، قليل في درجة توقعه، بأكثر من كونه أساسيا، وملحوظا، ومتمتع بدرجة مرجحة للتأثير في المسار الرئيس للأحداث، هذه التغيرات التي تقع، على وزن رفة جناح الفراشة، تتسم في معظم الأحيان بكونها الاستثنائي، التندري الذي يقوم في جوهره على المفارقة Paradox!

إن النظريات الكبرى ذات الطابع الحداثي الكلياني تبدو مريحة في التحليل العام الذي يعتقد أن لكل سؤال جوابا «نمطيا»، غير أن سؤال المستقبل ظل عصيا - في أحيان عديدة - على أن يجد له إجابة مُرضية، تقدم استشرافا وأن تتنبأ بدقة، حتى لو كان المستهدف هو المستقبل القريب. ومن ثم، كان التوجه نحو هجر المقولات الكبرى ذات الطابع المهيمن، والاجتهاد في بذل جهد أكبر وأكثر تواضعا، وإن يكن أكثر إرهاقا، في صياغة رؤى تهتم بمبادئ تتعلق بالحساسية للشروط الابتدائية، وإعادة النظر في علاقة الكل بالأجزاء والعكس، والتنظيم الذاتي، وحالات الانبثاق أو البزوغ والتشعب... إلخ، وهي المبادئ المتولدة مباشرة من المقاربات النظرية للشواش والتعقد.

هذا، وقد يكون من الجيد للغاية، أن تجد عبارة محدودة الكلمات، لكنها مفعمة بكل المعاني التي تود التعبير عنها بالشكل المطلوب، وببلاغة ملحوظة. إن هذا ما نجده في العبارة التي صاغها المفكر الأمريكي هنري آدمز Adams (1858-1918) عن المعنى العلمي للشواش:

«غالبا ما يولد الشواش (الفوضى) Chaos الحياة، بينما يولد النظام Order العادة»[10].

إنها العبارة التي تلخص مدى الحاجة إلى تفهم طبيعة التحول من البرادايم النظامي التقليدي الخطي الحداثي، إلى آخر لا خطي non-linear يحايث الراهن والمستقبل، متسما بحيوية التشبيك

المعقد، لا يُنمط بقدر ما يسعى إلى فهم يتعاطف «منهجيا» مع الشواش البادي ظاهريا على الأشياء، ساعيا إلى استيعابها وهي في حالة حراك وتفاعل، من دون أن يفرض رؤاه وتحليلاته وتفسيراته قسرا، سواء على البشر أو الأشياء.

إن الرؤية والدرس والتحليل والتفسير لا بد لها جميعا من منهجية «علمية» من أجل أن تقارب حالة/ حالات الشواش، وأن تنتظمها في إطار قابل للفهم النسبي، هذا الإطار الفهمي الذي لا بد له من أن يتسم بالمرونة، والقابلية للتعديل والمراجعة، وعدم إهمال التفاصيل، وأن يكون بينيا في تخصصاته، وكذا متجاوزا للتخصصات. بتعبير آخر، إنك لا تسعى إلى فهم واستيعاب حالة الشواش عبر عقلية مشوشة؛ بل بعقلية معقدة/ مركبة تنطوي على منهجية قادرة على تفهم واستيعاب ونظُم الشواش وفق إيقاعه الخاص.

«تكمن الفكرة هنا أن الأنظمة اللاخطية يكون النظام فيها؛ إما أكبر بكثير أو أقل بكثير من مجموع أجزائه، وهو ما يرجع إلى كونها نظما مفتوحة تدخل إليها المواد والطاقة وتخرج منها، وهي تبدي سلوكا عشوائيا، بمعنى أن حركة هذه النظم تتجه صوب العشوائية في صورة فوضى، إلى درجة تبدو القوانين كلها كأنها عجزت عن تفسيرها. ويعود سبب ذلك العجز إلى كون المعادلات التي تصف هذا السلوك هي المعادلات التفاضلية اللاخطية التي تتميز بكونها معادلات صعبة الحل، أو لا نجد لها حلا إلا بصورة استثنائية، وذلك لأن المعادلات التفاضلية تعامل التغير في الزمن كمتصل، وليس كمتغيرات مجزأة»[11].

● أيضا، وإضافة إلى ما سبق، ومن منظور بنائي ماركسي يمكن فهم التعقد الاجتماعي من خلال ما طرحه لوي آلتوسير Louis Althusser بخصوص الحتمية المتفاقمة «المتضافرة» Overdetermination، حيث تتسبب العديد من العوامل المتنوعة، والمترابطة، وذات المستويات المتباينة في وقوع الحدث، إنها تتساند بنائيا وفق ظروف وشروط، قد لا تكون محددة في كليتها، وقد يتسم بعضها بأنه تفصيلة نوعية متوارية نسبيا بأكثر من كونها عاملا رئيسا حاكما وباديا للعيان.

وعلى الرغم من أن البعض قد يرى - للوهلة الأولى - تناقضا في الربط بين الحتم من ناحية، وبين اتجاه تدعمه نظرية الشواش والتعقد يبتعد ويهجر مقولات الحتمية بالأساس من ناحية أخرى، فإن تفهم الطرح البنائي لـ آلتوسير، وتحديدا ما يعنيه بالحتمية المتفاقمة/ المتضافرة، كمفسر لوقوع الحدث، يجد انه يعد بمنزلة مساهمة مفيدة لدى درس ما يطلق عليه التحول الطوري في نظرية الشواش. إن الحتمية المتفاقمة تضع في آن معا كل العوامل المقصودة/ المدبرة من ناحية، مع الأخرى التي قد لا تكون مقصودة أو مدبرة بالمرة من ناحية أخرى، جنبا إلى جنب

حالة التداعي والاستدعاء الحر والتلقائي الذي يكون حاضرا شرط توافر بيئته الحاضنة، دافعا في أحيان ومعيقا في أخرى. وفي هذه الحالة من الحتمية المتفاقمة تتفاعل وتتجادل كل العوامل، من الكبرى الملحوظة، إلى تلك الصغرى التي قد لا تكون بادية للعيان، المتوقعة وغير المتوقعة، التي تشهد انتظاما معلوما، جنبا إلى جنب تلك التي تتسم بفوضويتها وتعقد تكوينتها غير المألوفة بعد لدى من يرقبها ويكون شاهدا عليها.

● وفي طرح آخر أكثر حداثة، تأتي مساهمة مانويل كاستلز Manuel Castells عن المجتمع الشبكي The Network Society. وإذا ما كانت مقاربة التعقيد قد تجاوزت نوعيا الأنموذج «العلمي» الخطي نحو آخر لا خطي، فإن مفهوم الشبكة وما يرتبط به من مفاهيم الشبكية والتشبيك، يعد الممثل الشرعي لهذا التجاوز النوعي، والمعبر الأكثر تمثلا لما يستهدفه هذا التحول في النظر والتحليل والتفسير.

وفي هذا الصدد، يرى كاستلز أن المجتمع يتألف من شبكات، تنطوي كل شبكة على مكونات ثلاثة رئيسة: العقد والروابط والتدفقات. والعقدة هي نقطة محددة موصولة بنقطة أخرى على الأقل، مع أنها، كثيرا ما تكون نقطة ربط بين نقطتين أخريين أو أكثر. أما الرابط فيصل عقدة بأخرى. والدفق هو ما يمر بين العقد ومن خلالها على طول الروابط[12].

«إن الشبكة عبارة عن فعل مركب ومؤسسة مركبة. إنها تشبه خريطة الجينوم البشري المسنود معرفيا بمعطيات رياضية متطورة ودقيقة جدا»[13].

يقترن بكل عنصر من هذه العناصر عدد من المتغيرات التي تحدد، مجتمعة، ميزة أي شبكة بعينها، وتكون العقد (مثل الأصدقاء والحواسيب والشركات) قوية أو ضعيفة، نشطة أو ساكنة، ثابتة أو متحولة، دائمة أو وقتية، شبكة مصادر أو شبكة متلقين لمختلف أنواع التدفقات. ويمكن أن تكون الروابط (كالمراسلة والأسلاك المعدنية والعقود) قوية أو هشة، خاصة أو عامة، مفردة أو متعددة، فريدة أو فائضة، ضئيلة أو مكثفة، متوازية أو متداخلة. أما التدفقات (مثل الثرثرة والبيانات والمال) فتكون غزيرة أو متدنية، مطردة أو متقطعة، أحادية الجانب أو متبادلة، أحادية الاتجاه أو متعددة الاتجاهات، متوازنة أو مختلة التوازن، ذات معنى أو لا معنى لها. وفقا لهذه الميزات المتغيرة وغيرها التي تحملها العناصر المكونة للشبكة، يكون للشبكة عدد من الخاصيات؛ إذ يمكن لها أن تكون مركزية أو لا مركزية (أي متعددة المراكز)، أو موزعة (أي لا مركز لها) تراتبية أو أفقية، محدودة أو لا حد لها، متناهية (لها حدود ثابتة لعدد العقد والروابط)، أو متكاثرة (لا حدود لعدد العقد والروابط) سهلة المنال أو يتعذر الحصول عليها، شاملة أو حصرية، مركزة (حيث يتصل عدد قليل من العقد بروابط قوية وكثيفة)، أو موسعة (أي أن كثيرا من العقد

موصول بروابط ضئيلة وهشة، تفاعلية (تسهل مسار التدفقات المتبادلة والمتعددة الاتجاهات) أو غير تفاعلية لا تمكن إلا من التدفقات الأحادية الاتجاه)[14].

هذا ويرجح كاستلز كفة المقاربة البنائية في دراساته السوسيولوجية لمجتمع الشبكات؛ فعلى الرغم من تشديده على الآثار التغييرية التي تتركها شبكات التواصل الرقمي، فإنه يؤكد: «أن التقانة لا تحدد المجتمع؛ لأن المحصلة النهائية هي نتاج نمط من التفاعلات شديدة التعقيد»[15].

«ثمة خاصية مهمة مرتبطة بالتقانات الإعلامية الجديدة والمجتمعات التي تنتشر فيها تلك التقانات، هي اللامركزية؛ فبفضل هندستها القائمة على التشعب والتشبيك يمكن للإعلام الشبكي القيام بممارسات اتصالية عديدة وواسعة - تتراوح بين توليد المحتوى وحتى نقل الرسائل - وهي ممارسات لا يولدها مصدر أو عامل مركزي واحد، ولا يسيطر عليها أو ينظمها. وقد أسهمت هذه التقانات في نشوء ظاهرة وسائل الاتصال ذات اللامركزية الفائقة التي تحافظ مع ذلك على طابعها الجماهيري.

إن الشبكات الرقمية، وبفضل هندستها المتشعبة واقتصار النفاذ إليها على وسائط وبرامج محوسبة شديدة التطور والقوة، تتسم باللامركزية؛ لأن تقانة التلقي هي نفسها تقانة الإنتاج، ذلك أن كل شخص يمتلك تقانة التلقي يمتلك في الوقت نفسه التقانة التي تمكنه من إنتاج محتوى الرسالة التواصلية»[16].

ومن ثم، يترتب على ما سبق «أن المكان في مجتمع الشبكات أصبح عبارة عن تدفقات، أي أنه ليس مكانا فيزيقيا. كما أصبح الزمان، وفق كاستلز، هو اللازمان. وصار غير موصول بالساعة المرتبطة بدورها بعصر الصناعة. إنه في مجتمع الشبكات عبارة عن آنية تسمح لنا بالوجود في أمكنة عدة في الوقت نفسه. إن تدفقات رؤوس الأموال، وفيض المعلومات لا علاقة لها اليوم بمكان بعينه. إنهما في اللامكان المرادف لكل مكان»[17].

خامسا: بعض ملامح الأنموذج الإرشادي الجديد
(التغذية الراجعة بين المنظور الشبكي والمستقبليات)

إذن، نستطيع أن نوجز: كلما قصرت مدة التجدد الكلي للمعارف العلمية، ازدادت الحاجة إلى أنموذج إرشادي جديد. وتغدو معرفة خصائص هذا الأنموذج الجديد بمنزلة البوصلة المنهجية التي تُمكن الباحث من إدراك وتفهم آليات الحركة الدينامية للأفكار والوقائع، ومن ثم القدرة على الاستشراف المستقبلي المشروط، حيث تتحدد المهمة الأساس - في هذا الصدد - في محاولة استجلاء تمثلات هذا البارادايم الجديد على مستويات وصعد ومجالات عدة، تشكل في مجملها رقعة الصورة

المفككة (puzzle)، لعل أهمها ما يتجلى في أبرز التحولات التي أصابت مجالات العلوم والمنهج العلمي والإدارة والتنظيم وأساليب الحكم السياسي والنظم الاقتصادية.

أ- العلوم والمنهجيات البينية والعابرة للتخصصات

تمثل مفاهيم التشبيك، والتواصل، والارتجاع شفرة التحول الحادث، منعكسا على كل الممارسات، كمًا ونوعًا، ومن أهمها البزوغ القوي للعلوم والتخصصات والمقاربات البينية والعابرة «وتمثل الأولى (البينية Interdisciplinary) الجهود المبذولة للارتقاء من مجرد الجمع وتنضيد الرؤى البحثية المتنوعة، والتعاون على كشف جوانب مختلفة من الموضوع نفسه إلى التفاعل الحقيقي والتبادل الفعال وتأثير التخصصات بعضها في بعض، بل الاندماج أحيانا. إن توحيد الكفاءات والمعارف التخصصية يمكن أن يكون على مستويات متنوعة من التفاعل، فقد يتعلق بعمليات نقل أو استعارة مفاهيم أو طرائق من حقل علمي إلى آخر، أو تهجين أو تقاطع بين التخصصات، بل إنشاء حقول بحثية جديدة من خلال المزاوجة بين تخصصين أو أكثر».

أما الأخرى (العابرة للتخصصات Trans disciplinary) فتُعنى «في آن معا بما هو بين التخصصات، وما هو عابر لمختلف التخصصات، وما هو مجاوز لكل تخصص، فثمة في هذا المفهوم ما يتجاوز المعرفة العلمية بالمعنى الدقيق إلى معرفة عامة، وفهم أشمل للعالم على اختلاف مظاهره الطبيعية والإنسانية التي تدرسها العلوم في تخصصاتها المستقلة أو مشاريعها البينية»[18].

الفلسفة الكامنة هنا تنزع إلى فك الارتباط مع حقبة الحداثة بكل سردياتها الكبرى، وحتميتها، وخطيتها، وإطلاقيتها... إلخ، تأسيسا لأنموذج بديل يلبي متطلبات الواقع الذي صار متسما بالسيولة، والتداخل، والسعي إلى الفهم والتفهم Verstehen، كما سبق أن طرحه - منذ زمن بعيد - كل من وليم ديلثي W. Dilthey وماكس فيبر M. Weber أن مسارات العلم؛ الطبيعي والاجتماعي في آن معا، في حراك دائم من أجل التلاقي والتقاطع، وهي تتضافر في تغذية راجعة، من دون أن يدعي أحدهما تفوقا على الآخر، وإنما السعي إلى إنجاز اختراقات تسهم في بناء أنموذج جديد. ومنذ البداية، كانت الحيرة في تصنيف مجال المستقبليات أو الدراسات المستقبلية، ليتم توطينها ضمن المجالات البينية والعابرة للتخصصات. لم تكن هذه الحيرة إلا نتاجا لعقلية حداثية صارمة وإطلاقية، في حين أن هذا المجال الذي فرض نفسه، فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان سباقا في رفضه لهذا الأنموذج السائد، ومساهما بقوة في تأسيس أنموذج جديد، تمثلت أبرز قسماته في المرونة النظرية والمنهجية، والتشابك المعرفي، وعقلية البدائل، فضلا عن إطلاق العنان للتفكير فيما لم يكن من الممكن التفكير فيه!

ب - مصفوفة التأثير المتقاطع كتطبيق منهجي للمنظور الشبكي

تعد مصفوفة التأثير المتقاطع Cross Impact Matrix أحد أهم الأساليب المنهجية المستخدمة في العلوم الاجتماعية عامة، ومجال البحوث المستقبلية خاصة، وهو الأسلوب الأكثر قربا من تطبيق المنظور الشبكي؛ حيث التعاطي مع المآلات المستقبلية الممكنة عبر تفاعلات تتولد عن تقاطعات بين متغيرين رئيسين هما الأحداث Events، والأفعال «التصرفات» Actions، حيث يتم التعامل مع المتغير الأول بوصفه معطى Given، أما المتغير الآخر فهو الاستجابات وردود الفعل الممكنة Possible من ناحية، والمرغوبة Desirable من ناحية أخرى إزاء هذا الحدث المعطى، وهو ما يتم عبر سلسلة طويلة معقدة من التفاعلات، تلك التي تضع في اعتبارها الأوزان النسبية المرجحة لكل المتغيرات الداخلة في حالة التفاعل، وبما يمكن أن تسفر عنه هذه الحالة/ الحالات من نتائج ومترتبات.

هذه العملية التي تعتمد بقدر كبير للغاية على الاحتمالات، وهي مجرد تكنيك لإدارة عملية تفاعل مفترضة، قد تكون ثرية ومثمرة للغاية حال تغذيتها بالأفكار والفرضيات والاستبصارات والاستشرافات، وقد تستحيل إلى أداة هيكلية جافة ونمطية في حال افتقادها لكل ما سبق. ومن هنا أهمية الوعي بالدور الذي تؤديه نظرية الفوضى/ الشواش، في ارتباطها الوثيق بنظرية التعقد، وما تؤديانه من تحفيز للوعي بمسلمات ومبادئ هذه النظريات عند الشروع في ارتياد فكر المستقبل، حيث الاهتمام المتطلب بالحوادث الجزئية والفرعية وعدم إهمالها في مقابل غيرها ذات الحضور الذي قد يبدو قويا، كذلك ألفة حالة التعقد التي عليها الواقع، وهو في حالة تبادل مع أنماط الوعي الإنساني المتباين. وكما لا يمكن إهمال السياقات الكبرى؛ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، يصير من غير الممكن أيضا عدم الاهتمام بالجوانب النفسية وطبيعة التكوينة الشخصية وتاريخ التجارب والخبرات التي مرت بها. إن طبيعة العلاقة التبادلية الذاتية/ الموضوعية، الشخصية/ المجتمعية لا يتم تفهمها هنا من منظور الصغير الضئيل في مقابل الكبير الضخم، بل بفهم أن تكوينة الأول هي تكثيف معقد من شبكة علاقاته وتمثلاته للآخر؛ كأن يكون البحث في تمثلات الشباب، كفئة اجتماعية، لديناميات هيمنة النخبة في مجتمع من المجتمعات، حيث لا يتم التعامل - في هذا الصدد - مع «الشباب» كمعطى يمثل كتلة واحدة موحدة في الظاهر، بل في عمق انتماءاتها المتشعبة، في تقاطعاتها وتواصلاتها، تلك التي تضع في الاعتبار نوعية الانتماءات الطبقية، موقعا وموقفا، والنوع، والوعي الجيلي، والموقف السياسي/ الأيديولوجي، جنبا إلى جنب طبيعة المستوى التعليمي/ الثقافي ونوعيته، وإدراك الذات وتقييمها، وطبيعة الشخصية وخبراتها الذاتية المتفردة، ورؤية الشخص لدوره في الآن والمستقبل. وفي ضوء ذلك يكون الوقوف على

طبيعة التمثلات الممكنة إزاء هيمنة النخبة، تلك الهيمنة التي تتفرع بتفرع نطاقات ومستويات وصعد القوة التي تحوزها هذه النخبة أو تلك.

جـ - الأدهوقراطية بديلا عن البيروقراطية!

في بدايات السبعينيات من القرن العشرين، صك المفكر الأمريكي المستقبلي آلفين توفلر Alvin Toffler مصطلح الأدهوقراطية the Adhocracy، ليوصف من خلاله طبيعة التحول الذي طرأ على التنظيم بكل مستوياته، من البيروقراطية التي سادت فترة نهايات القرن التاسع عشر وحتى ما بعد منتصف القرن العشرين، ولتشهد العقود التالية ذلك التحول من الحداثة إلى ما بعدها، ومن العصر الصناعي إلى عصر المعلومات ومجتمع المعرفة. وهو التحول الذي اتسم بعدة سمات، لعل أهمها ما تمثل في الاتجاه نحو الأفقية بديلا عن الرأسية، أو المائدة المستديرة بديلا من المنصة والقاعة؛ فالكل يشارك على قاعدة من التكافؤ والندية. كذلك الوقتية كبديل عن الديمومة؛ فالتنظيم قائم وفي حالة انشغال شبه دائم بهدف إنجاز المهمة المحددة، وينحل من تلقاء نفسه فور تحقيق الهدف. كما أنه تنظيم يتسم بالمرونة؛ فالأعضاء يلتحقون وفق المتطلبات، ومن ثم فإن حالة الالتحاق والمغادرة تتم بشكل مستمر تقريبا، وفق الحاجة. إن حالة التواصل القائمة بين الأعضاء ليست هيراركية (تراتبية)، بل شبكية، ارتجاعية، تتعاطي فورا مع حالات التعقد عبر تقديم الحلول والبدائل الممكنة.

تأسيسا على ما سبق، تصير تمثلات الأنموذج المعرفي مستوعبة على كل المستويات والصُّعد؛ فالمجتمع الشبكي يستتبع إعادة تشكيل تنظيماته المختلفة على صورته، ليصير التنظيم أدهوقراطيا، وهو أقرب ما يكون إلى المصفوفة التي تتفاعل داخلها الأحداث والتصرفات، بكل ما تنطوي عليه تلك الحالة من تعقدات ومواقف مفاجئة واستثنائية غير نمطية، وهي الحالة التي تضعنا مباشرة ضمن أجواء المستقبل بكل ما يعنيه من حث على التعامل بناء على حالة غالبة من اللاتأكد!

د - الديموقراطية التشاركية كبديل للديموقراطية التمثيلية (النيابية)

على مستوى أكثر عملية وواقعية؛ أعني المجال السياسي، ليس الهدف منه تحليلا سياسيا بقدر تحليل كيفيات تمثل الأنموذج الإرشادي الجديد، تفرض الديموقراطية التشاركية Participatory Democracy نفسها بديلا عن الديموقراطية التمثيلية، حيث كسر وتحطيم قواعد التمثيل والمشاركة القائمة على ثنائية: نخبة - جماهير «هذه المشاركة التي يتجاوز مفهومها النظر إلى الناس في المجتمع باعتبارهم «كمًّا» من المواطنين إلى مفهوم آخر يُعنى بدرجة أكبر بـ «نوعية» هؤلاء المواطنين؛ باحتياجاتهم ومتطلباتهم الإنسانية المختلفة»[19].

المنظومة بكاملها تنزع إلى رد الأمر برمته إلى أصحاب المصلحة المباشرين دون حدود أو قيود أو ادعاء النيابة والتمثيل، فكما تتلاشى الحدود بين العلوم والتخصصات لتتلاقى وتتلاقح، وكما تُخلي البيروقراطية مكانها للأدهوقراطية، تغدو الديموقراطية التشاركية بمنزلة التجلي السياسي للاتجاه الغالب الأعظم تأثيرا the Mega Trend في هذا العصر. وهو الاتجاه الذي تظاهره وتدعمه التقنيات الحديثة ووسائل الاتصال المتقدمة، تلك التي تخلق وعيا مغايرا بحقوق المواطن وتعزز لديه شعورا بقوته وقدرته على تمثيل ذاته بذاته من دون احتياج إلى طرف وسيط، قد ينجح في تمثيل مصالحه في بعض الأحيان، ولكن ليس في كل الأحوال. ومن ثم فإنه من المتوقع أن المترتبات على ذلك ستتمثل في إيقاع سياسي - مجتمعي أكثر سرعة وديناميةً، بل وبروز لنخب جماهيرية تقود الرأي العام بقدر أكبر من المرونة والتفهم، وبالتالي يصنع القرار عبر قادة رأي يتمتعون برأسمال اجتماعي - سياسي، هؤلاء الذين يتخلقون عبر وسائط الاتصال الاجتماعي، مشكلين جماعات افتراضية ذات توجهات ومصالح يدافعون عنها ويحتشدون عبر الشبكات من أجل الضغط لإقرارها. ويظل التساؤل المطروح: إلى أي مدى من الممكن أن يسهم ذلك كله في فك قبضة نخبة القوة the Power Elite عن مجالات احتكارها وهيمنتها الأكثر أهمية واستراتيجية، تلك التي تمثل جوهر المنظومة الرأسمالية القائم على حكم القلة بالأساس وممارستها للهيمنة على فضاءات المجتمع المختلفة؛ رأس المال والسلطة والمعرفة، مع قدر محكوم ومقدر لهوامش الحركة والفاعلية التي قد تشكل معارضة لا تحوّل النظام بقدر ما قد تسهم في تجديده؟ أعني، إذا كانت صيغة الديموقراطية التشاركية تفضي في تفاعلات أبعادها نحو المستقبل إلى فك احتكار النخبة لسلطة صنع واتخاذ القرار، وإعادة هذه السلطة إلى المواطنين، وكذا تكريس الحق في المعرفة، فإلى أي مدى يصير ممكنا إحداث اختراق مطلوب تجاه محدد رأس المال، عبر تغليب النظم التعاونية الحديثة والمتقدمة، أو ما بات يعرف حديثا بالاقتصاد التشاركي the Participatory Economy، حيث تلغى المسافة بين المنتج والمستهلك، وحيث يكون الإنتاج من أجل تلبية الاستخدام وليس التبادل بغرض الربح ومراكمة رأس المال والاحتكار والاستغلال؟[20].

خاتمة

نخلص مما سبق إلى أن التعقد يعني تضافر عديد من المتغيرات في خلق الناتج، والحالة، والظاهرة، والمشكلة... إلخ. وأن حالة من اللامعرفة بشأن بعض هذه المتغيرات من ناحية، وديناميات التفاعل المفضي إلى هذه الحالة من ناحية أخرى تعد غالبة على محاولة الفهم والتفسير والتأويل. في حين يعني الشواش وجود حالة ما لم تخضع بعد للتنميط القابل للقياس.

إن «نوع الشواش الذي نتحدث عنه الآن، أو ما يعنيه علماء القرن الحادي والعشرين، ليس هو نوع الشواش نفسه الذي كان الأقدمون يشيرون إليه، أو أنه ليس ما نعنيه في حياتنا اليومية بكلمة شواش. ذلك النوع من الشواش العادي يتسم بالكامل بأنه عشوائي ولا يمكن التنبؤ به، ولا حتى من حيث المبدأ. أما نوع الشواش الذي نعنيه هنا فهو بالكامل نظامي وحتمي، وكل خطوة فيه تتبع خطوة أخرى في سلسلة لا تنقطع من السبب والنتيجة هي قابلة للتنبؤ في كل مرحلة»[21].

إن ما يجب على النخبة المثقفة القيام به في ظل التحول صوب برادايم جديد يتمثل في محاولة «إيجاد نظرية معرفية جديدة تتجاوز مهمة تقييم مدى الصحة والدقة التي وصلت إليها أفكارنا في تصوير الحقيقة. بدلا من ذلك، نحن نأمل في بناء نظرية معرفية توليدية generative أكثر من كونها تمثيلية representational تمنح تجاربنا في الحياة كثيرا من المعنى. لن تتعامل هذه النظرية مع الحياة فقط، بل مع التعقيد والتناقضات والهزل والغموض، وغير ذلك من الجوانب الكثيرة الأخرى التي تصنع المعنى في تجاربنا الحياتية. وسوف تكون هذه النظرية تأويلية Hermeneutical تفسيرية، وليست يقينية مؤكدة»[22].

وعلى الرغم من أن الدعوة هي لكل النخبة المثقفة، فإن المعنيين بتلبيتها هم البعض منهم، المؤهلون والمهتمون بالفعل، ومن خلال هؤلاء تنساب الرؤى والمفاهيم، تفكيكا وتبسيطا، عبر وسائط متعددة، مباشرة وغير مباشرة. فهي السبيل إلى الاشتباك مع المستقبل؛ بمنظومته الفكرية والقيمية والمعيارية الجديدة، حيث تصير عتبة تجاوز حالة التقليد المهيمنة رهنا بتكون الكتلة الحرجة مجتمعيا، لتقود على كل المستويات والصعد، عبر تمثلاتها الأنموذج الإرشادي البازغ.

الهوامش

1 انظر: محمد عبدالمنعم شلبي، الحالة المعرفية وإنتاج المثقف التقليدي، فصلية أحوال مصرية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، العدد 65، السنة الخامسة عشر، صيف 2017، ص131 - 135.

2 انظر: محمد عبدالمنعم شلبي، الدراسات المستقبلية العربية .. تقييم نقدي وتصورات مقترحة، فصلية شؤون اجتماعية، تصدر عن جمعية الاجتماعيين والجامعة الأمريكية في الشارقة، الشارقة، العدد 91، السنة 23، خريف 2006، ص105 - 139.

3 انظر: داوود خليفة، إبيستمولوجيا التعقيد: دراسة لبرادايم التعقيد والفكر المركب لدى إدجر موران، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2016، ص132 - 142.

4 معين رومية، مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش، موقع «معابر»، ص3:
Maaber.50megs.com/issue-december03/epistemology-1.bt(Accessed: 22-12-2018).

5 سعيدي عبدالفتاح، البعد الاجتماعي لنظرية الكاوس، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 18، مارس 2015، ص63 و64.

6 داوود خليفة، إبيستمولوجيا التعقيد، مرجع سبق ذكره، ص114 - 118.

7 المرجع السابق، ص194.

8 معين رومية، مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش، مرجع سبق ذكره، ص4 و5.

9 المرجع السابق، ص203.

10 معين رومية، مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش، مرجع سبق ذكره، ص1.

11 داوود خليفة، إبيستمولوجيا التعقيد، مرجع سبق ذكره، ص114.

12 دارن بارني، المجتمع الشبكي، ترجمة: أنور الجمعاوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2015، ص39.

13 كمال عبداللطيف، المعرفي، الأيديدولوجي، الشبكي .. تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2012، ص33.

14 دارن بارني، مرجع سبق ذكره، ص40.

15 المرجع السابق، ص59.

16 المرجع السابق، ص82 و83.

17 كمال عبداللطيف، المعرفي، الأيديدولوجي، الشبكي، مرجع سبق ذكره، ص34.

18 نور الدين بنخود، دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص12 و13.
https://units.imamu.edu.sa/rcentres/Arabic_Literatures/fileslibrary/Documents / نسخة 20% نهائية 20% دليل.(2019/2/Accessed : 9).20%الدراسات 20% البينية

Hinds, B; Representative Government and Participatory Democracy, (In): Andrew Vandenberg (Ed): Citizenship and Democracy in a Global Era, Macmillan Press LTD, London, 2000, p: 2.

محمد عبدالمنعم شلبي، نخبة القوة في القرن الحادي والعشرين، دار النهضة العربية، القاهرة، 2018، ص123 - 146.

وأيضا:

Hahnel, Robin; Erik Olin Right, Alternatives to Capitalism: Proposals for a Democratic Economy, First Published by Verso, London, 2016, P: 2.

جون جريبن، البساطة العميقة (الشواش، والتعقد، وانبثاق الحياة)، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013، ص115.

وليم دول، المنهج في عصر ما بعد الحداثة، ترجمة: خالد عبدالرحمن العوض، العبيكان للنشر، الرياض، 2016، ص167.